المـــرأة العـراقـيـة وفـصـول الـعـنـف الـثـلاث

سلسلة تبدأ من القتل غسلاً للعار والاغتصاب وتنتهي بالانتحار

□ بغداد / إيناس طارق
□ تصوير / محمود رؤوف

كفى عنفاً

الفصل الأول
يقتلن غسلاً للعار

حالات العنف التي تتعرض لها النساء العراقيات كأنها مسلسل يمتد بحلقات وأجزاء متعددة، بين الاغتصاب والانتحار، وغسلاً للعار.

حيث لم تكن حادثة قتل رجل لزوجته ومن ثم إقدامه على الانتحار في منطقة دور الشركة في كركوك، وأخرى قتلها زوجها حرقاً بمادة النفط الأبيض، بسبب خلافات عائلية شمالي المدينة قبل أيام قليلة، سوى حلقة من سلسلة حوادث الانتحار التي تحدث يومياً في كل مدن العراق. والزوج المنتحر هو من مواليد عام ١٩٩٠ ويعمل سائق أجرة، قتل زوجته بإطلاق النار عليها من سلاح (كلاشنكوف) لأسباب غير معلومة للجميع .

تزوّجت وقتلت

بينما تختلف حكاية سلام المتزوج منذ ثلاث سنوات بامرأة أحبها وتعرض إلى استنكار قاس من عائلتها بعد أن رفضت تزوجيها له، فهربت معه وأصبحت أماً وحاملاً في طفلهما الثاني، جنان وزوجها أصبحا ضحايا النزاع بين أسرتيهما وقد انتهت بإطلاق النار على حنان في منزلها – وهي حامل – من قبل أقاربها وكان القتل دفاعا عن الشرف.

زوجها قال للقوات الأمنية أثناء التحقيق : انه طلب يد حنان ثلاث مرات، وكان قد أرسل العديد من الناس لأسرتها لطلب الزواج، لكن لا تزال عائلتها لن تسمح بالزواج . تزوجا من دون موافقة الأسرة، وحنان لم تر والديها مرة أخرى، ولكن كانا على اتصال معها عبر الهاتف، وشقيقها وأولاد عمها نفذوا الجريمة .

تقتل والطفل يختفي

أما حكاية مرام التي تزوجت بطالب معها في الجامعة سراً، وبعد أسابيع تلقت خبرًا بأنه سافر إلى سوريا، وقد اكتشفت أنها حامل، ومازالت مقيمة في بيت عائلتها لأنها عزباء! لكن لم تستطع إخفاء الجنين الذي ينمو في أحشائها وهربت إلى دمشق وبقيت هناك حوالي سنة، وأصابها الذهول بعد طول انتظار لتكتشف أن زوجها الطالب تخلى عنها، حيث أرسل لها مبلغا من المال، ورسالة اعتذار عند ولادتها لأنه لا يستطيع تحمل المسؤولية وعليها إيجاد الحل. عندئذ قررت العودة لكن وجدت أنها ضاقت بالحياة ذرعا، فالطفل لا نسب له وعند العودة كانت تعرف أنها سوف تقتل من قبل أشقائها غسلاً للعار، وفعلا قتلت بعيداً عن الأنظار في محافظتها الجنوبية، وتدفن هناك والطفل لا يعرف مصيره أين!!

نساء تعرّضن للاهانة والاغتصاب بسبب أفعال الأزواج أو الأشقاء وهن لا يعلمن بنشاطهم الإرهابي

العنف الأخطر في العراق ضد المرأة هو جرائم غسل العار التي تشهد ارتفاعاً في أعداد الضحايا

حالات انتحار النساء تتكرر.. والعراق يخلو من إحصائية رسمية

الفصل الثاني
اغتصاب فتيات

صراخ يعلو المكان في الغرفة المظلمة وخمسة شباب يتناوبون على اغتصابها ولا تستطيع نطق غير كلمة واحدة "شرفي...." . ألم تحمّله جسد فتاة كانت "عذراء" ولم يتجاوز عمرها الـ ١٩ عاماً ، أكملت العملية بنجاح ساحق من قبل المغتصبين الذين لم يتواروا عن تصوير ما يقومون به وسط أحد السجون العراقية ، رميت جثة عارية لا يعلوها غير أنفاس متقطعة وحسرات منهكة، والسبب أنها كانت شقيقة احد المعتقلين الذي حاولت معه بعض الجهات انتزاع اعترافات رفض البوح بها، فلجأت إلى استخدام شقيقته كوسيلة ضغط .

بعد مرور فترة أطلق سراح شقيقها بعد أن ثبتت براءته لعدم كفاية الأدلة والفتاة كانت ضحية الشقيق الذي خرج ليقتلها غسلا للعار، حاملا بندقية كلاشكنوف حصل عليها من ابن عمه، خطيب الفتاة السابق واخر كلمات نطقتها قبل موتها "توسّلت بهم على ألا يغتصبوني، وأنا أقسم لهم بأني لا اعرف شيئاً وأنا مثل أخت لهم، لكنهم فعلوا ذلك، واحدا تلو الآخر ." الضحية تسبق الأحداث وتحرق نفسها بالنفط وتنهي مسلسل خوفها وانتظارها الموت قبل وصول شقيقها إلى المنزل لينفذ عقوبة الإعدام بحقها .

أما قصة الزوجة منار التي أقدمت على قطع شريانها بعد أن دخلت عليها مجموعة من المسلحين يرتدون زيا عسكريا يبحثون عن زوجها لكنه كان غير موجود آنذاك داخل الدار بعد هروبه عن طريق السطوح خوفا من قتله ، منار كانت تحمل سكينا بيدها ، أخبرت المسلحين إذا قدم عليها شخص منهم سوف تقطع شريانها وفعلا نفذت تهديدها بعد أن حاول اثنان منهم الانقضاض عليها لاغتصابها وعندما شاهدوا ما فعلت فرّوا تاركيها تنزف ليسرع الجيران ويحملونها إلى اقرب مستشفى لمنطقة الزعفرانية وينقذوا حياتها، لكنها لم تفلح بفعلتها هذه من العقاب، حيث قام الزوج بقتلها بإطلاق خمس عشرة رصاصة على جسدها، عندما عاد بعد سنة من الغياب والاختفاء عن الأنظار لأنه لم يصدق أن المسلحين لم يعتدوا عليها . فالكثير من النساء يتجنبن البوح بتعرضهن شخصيا للتحرش الجنسي أو الاغتصاب لأسباب تتعلق بقيم المجتمع العراقي كان الله في عون النساء العراقيات...!

يقتحمون المنازل

إنهم يقتحمون المنازل ويحملون البنادق والأسلحة ويعتقلون المدنيين الأبرياء ثم يقتلونهم ، إنهم إرهابيون بزي عسكري ، يدعون بأنهم جاءوا للقيام بحملة تفتيش ، ثم ينقلب الوضع ليصبح حملة قتل .

(م . ز) التي تعرضت إلى الاغتصاب من قوات بزي رسمي، وأدركت في ما بعد بأنهم إرهابيون يدعون بأنهم قوات حكومية ، تقول "فكم من الإرهابيين استغلوا الظروف الأمنية ودخلوا منازل واعتقلوا الأبرياء واغتصبوا الناس، ولا يعلم من هم وكم من نساء تعرضن الى الاهانة والاغتصاب بسبب أفعال الأزواج او الأشقاء، وهن لا يعلمن شيئا عن نشاطهم الإرهابي فما ذنب المرأة".

نساء عراقيات

من منا لا يعرف النساء العراقيات ونضالهن عبر التاريخ، فقد تميزت المرأة العراقية منذ القدم وكانت ولا تزال معيار نهضة المجتمع وتقدمه، فمنذ عام ١٩٢٤ بدأت تفكر بتأسيس منظمة نسوية في بغداد وكان لها دور مميز ولكن بنفس الوقت عانت من ويلات الحروب والأزمات الصعبة لنتعرف معاً على المرأة العراقية ومعاناتها منذ عام ١٩٨٠ إلى هذه اللحظة..

المرأة العراقية هي المناضلة المقاتلة وهي الأم والأخت، شدّة الحزام وصاحبة الأهازيج الثورية التحريضية .. وهي الفلاحة التي حرثت أرض الفراتين، وسقتها دماً قبل الماء، وزرعتها وردا فأثمرت خيرا.. إنّها راعية الأغنام والأنعام وهي راعية البيت وربّته، وهي الفارسة المغوارة، مالكة الحديقة والحقل والبستان والدفتر والبيدر، وهي في المدينة التاجرة وصاحبة الأعمال ومقاولات البناء والإعمار، وهي الاقتصادية الماهرة الباهرة إنجازا..

العراقية ليست قاصرا أو جاهلا أو فاقدة الأهلية بل هي الشاعرة والمربية والمهندسة والطبيبة والرائدة في مجال السياسة إنها عشتار العراق إنها الخالدة على مر العصور والعراقية طالبة علم وأستاذة جامعة وهي المدرسة المربية للأجيال التي تسمى بأسمائها، وهي عالمة الذرة والكيمياء والفيزياء والرياضيات، والشاعرة الرائدة والمجددة، وهي القاصّة والروائية، إنّها الأديبة الفذة. تعرفنا على المرأة العراقية ونضالها ومكانتها ولكن نرى أن هناك جانبا لم يسلط عليه الضوء، وهو معاناة هذه المرأة، فإنها عانت وتعاني، وقد تنوعت مشاهد المعاناة، من فترة الحرب العراقية الإيرانية في عام ١٩٨٠ إلى يومنا هذا.

الفصل الثالث
حالات الانتحار

على رغم أن حوادث الانتحار ترتفع في أعدادها في كل دول العالم، حيث تشير إحصاءات منظمة الصحة العالمية الى إن ما يقرب من مليون شخص ينهون حياتهم انتحاراً في كل عام، أو ما يعادل حالة وفاة واحدة في كل ٤٠ ثانية، لكنها في العراق ذات خصوصية لاسيما ما يتعلق بمحاولات الانتحار المتكررة لفتيات عراقيات، بسبب الطبيعة المحافظة للمجتمع، والتركيبة الاجتماعية والعشائرية، إضافة إلى القيم الدينية، وكلها عوامل من المفترض أن تكون كوابح لعجلة زيادة حالات الانتحار، لكن مع ذلك كله فإن المؤشرات تدل على أن الظاهرة في تزايد.

انتحار النساء

ولا يقتصر الانتحار في العراق على الرجال فحسب، بل يشمل النساء لاسيما الفتيات، ففي مدينة بابل تعايش المواطنون مع عشرات من حالات الانتحار العام الماضي كان أشهرها انتحار شابة في سنتها الأخيرة بسبب خلاف مع والدها ومدرستها على الدرجات الدراسية. وفي كردستان تلجأ البنات إلى الانتحار هرباً من محاولة تزويجهن بمن لا يحببن. وفي بغداد ومدن الوسط والجنوب فإن فتيات يلجأن أيضاً إلى الانتحار غسلاً للعار، بحسب ناشطين في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، عدا أن بعضهن يقتلن من قبل الأهل بحجة الدفاع عن الشرف.

حالة نادرة أقدمت فتاة جامعية في منطقة الصالحية في بغداد على الانتحار بتعليق نفسها بالمروحة السقفية عام ٢٠١٠. وما زالت سلمى وهي طالبة في المرحلة الرابعة في الجامعة المستنصرية تعيش "عقدة نفسية" منذ أن أقدمت أختها الكبيرة على الانتحار بسكب البنزين على جسدها عام ٢٠٠٧. ولا يمكن معرفة الأسباب الحقيقية وراء إقدام أختها على الانتحار، فهي تجهل ذلك تماماً، وتروي إحدى المدرسات ، وهي مدرسة فيزياء محاولة انتحار طالبة في الثامنة عشرة من عمرها ،العام الماضي، بسبب إجبارها على ترك المدرسة من قبل أهلها.

وحاولت الفتاة بحسب المتحدثة إلقاء نفسها من البناية العالية للمدرسة لكن انتباه زميلاتها حال دون ذلك. وتركز هيفاء على الدور الايجابي للمدرسة، فقد تدخلت الإدارة وأقنعت أهلها بضرورة مواصلة البنت لدراستها، وهذا ما حصل بالفعل حيث أبدت الطالبة حماسا كبيرا في التفوق محولة الأفكار اليائسة إلى عمل بناء.

وفي العام الماضي ٢٠١١ انتحرت فتاة في المحمودية بحرق نفسها في غرفتها، وكانت الأسباب بحسب الإشاعات أنها حامل بصورة غير شرعية وحين اكتشف أمرها أقدمت على الانتحار، وبعد الاطلاع من مصادر رسمية على تفاصيل الأمر وتقرير الطبيب حيث اثبت عكس ذلك، فلم تكن الفتاة حاملاً على الإطلاق.. ولم يتم التوصل إلى الحقيقة حتى من أهلها الذين لا يودون الحديث حول الموضوع ويعدونه تدخلاً في الأمور الشخصية.

وعلى الرغم من أن هناك أسباباً كثيرة لانتحار الفتيات في العراق، إلا أن القناعة المجتمعية تربط الأمر غالبا بدوافع جنسية. وأن اغلب اللواتي يقدمن على الانتحار يعشن حالة من العزلة، وموجات من الكآبة، تؤدي إلى قتل النفس فإن الوضع في العراق يختلف بعض الشيء، ذلك أن أغلب النساء المنتحرات أو اللواتي يحاولن الانتحار لا يعانين من العزلة، فهن دائماً وسط الأهل والأقرباء، ومن المفترض أن يعيق ذلك محاولات الانتحار.

لكن الباحث الاجتماعي احمد الريس يقول : إن هذه الفكرة صحيحة، لكن رغم هذا كله، فإن المرأة العراقية تعاني ضغوطات اجتماعية ونفسية وهي داخل الأسرة.

ويضيف ما يحدث ليس عملية تراكمية من كآبة وأمراض أخرى تؤدي إلى تقدم متدرج في الإيمان بفكرة الانتحار، بل أن ما يحدث للفتاة العراقية هو لحظة انفجار بعد فترة زمنية تتباين من فتاة إلى أخرى، وهذا الانفجار يقود إلى محاولة الانتحار المفاجئ.

ندم بعد فوات الاوان

إحصاءات رسمية

لا توجد في العراق إحصاءات رسمية عن حجم ظاهرة الانتحار، لكن المشاهدات الميدانية والروايات التي يتناقلها الناس تسلط الضوء على حالات الانتحار. ومهما صنف الانتحار في مجتمعنا من قبل الناس على أنه من المحرمات، إلا أن ذلك لن يمنع من تفاقم الظاهرة، إذا لم توضع الخطط الكفيلة بردع هذه الظاهرة، وأول خطوة في هذا الطريق، هي توثيق ورصد حالات الانتحار، ووضع خطط الوقاية منها. الجدير بالذكر أن اتحاد نساء كردستان في السليمانية سجل أكثر من ثمانين حالة حرق النفس لنساء في الأشهر الستة الأولى من العام الماضي، في حين سجلت نحو مائة حالة في النصف الأول من ٢٠٠٧.

تظاهرات للمطالبة بحقوق المرأة

مَن ينصفها؟

وفي هذا الوقت بالذات الذي هو وقت سن القوانين والتشريعات الجديدة نجد أن المرأة سلبت حقوقها مرة أخرى وبإشكال عدة، ولم يأت من ينصفها لا دستوريا ولا قانونيا، وصارت الحكومة تتغاضى عن الرجوع للمواثيق الدولية الخاصة بالمرأة في تشريعها بعض القوانين، فمتى سيأتي من ينصف هذه المرأة ويستذكر نضالها التاريخي ومعاناتها التي لو مرت على نساء العالم لرأيتهن ينتحرن أو يحاولن تغيير أماكنهن على أن يعشن بهذا الشكل؟!